عمران دمشق من القديم إلى الآن

المهندس نزيه كواكبي

تقع دمشق ضمن الغوطة، التي تبلغ أبعادها ١٦١٠ أميال. وهي هبة ستة فروع من نهر بردى. أما باقي الأطراف فصحراء قاحلة. وقد شغلت مستوطنة عمرانية بشكل مستمر موقع دمشق منذ القرن الرابع ق.م. وفي نهاية القرن الثاني ق.م، أصبحت دمشق عاصمة لمملكة آرامية. هذه المدينة الآرامية، تقع حيث يقع الجزء الغربي من مدينة دمشق القديمة الآن. يقع المعبد الآرامي حيث عبد السوريون القدامى الإله حدد، إله العاصفة والمطر والخصب، إلى الشمال الغربي من المدينة القديمة الحالية، إنه بالتأكيد حيث الجامع الأموي اليوم. إلى جنوب معبد حدد كان القصر الملكي، وبين المنشأتين انتشرت مساكن المدينة. وإثر غزو الإسكندر لدمشق عام ٣٣٣ق.م نمت مدينة يونانية إلى الشرق من المدينة الآرامية القائمة. كانت المستوطنة اليونانية كبيرة، واتبعت الأسلوب اليوناني في الشوارع المتوازية والمتعامدة، وللأسف لم يبق أي أثر من هذه الفترة. خلال حكم بومبي، عام ٦٤ق.م، سقطت المدينة في يد الرومان، وتحت حكم الرومان، ازدهرت دمشق: إذ جلب السلام معه الرخاء ومضاعفة عدد السكان. أقام الرومان إنشاءً ضخماً ضمن المدينة، وأحاطوها بسور حجري كبير من جميع جهاتها، حيث تبع الطرف الشمالي منه مجرى نهر بردى. لقد جمع الرومان المدينتين اليونانية والآرامية معاً وأسسوا نمطاً متعامداً فوق الجميع، مما ساهم بشكل أكيد في النمو المستقبلي للمدينة.

سمحت سبع بوابات بالدخول إلى المدينة: باب الجابية، الباب الشرقي، واثنتان ضمن القسم الجنوبي من السور: باب كيسان، والباب الصغير، وثلاث فوق نهر بردى في الشمال: باب السلامة، وباب الفراديس، وباب توما. لقد بقي باب واحد فقط هو الباب الشرقي الذي بني خلال فترة سبتيموس سفيروس وكركلا، وقوس ضخمة رباعية ضمن منتصف المدينة (التترابيل) في الشارع المدعو بالمستقيم؛ ذلك الشارع الذي مشى فيه بولس خلال قدومه لدمشق. إنها تجمع الباب الشرقي بباب الجابية عند تقاطع منتصف المدينة. في موقع المعبد الآرامي القديم، بنى الرومان معبد جوبيتر وفق الطراز الكورنثي. اليوم، ما تزال بعض الأعمدة والأفاريز والسواكف والأبواب من هذا المعبد قائمة مرئية. تقوم الآغورا إلى الشرق من المعبد وتتصل به بشارع عريض ذي أعمدة أخاذة. كذلك بنى الرومان قناة مائية لنقل المياه من نهر بردى إلى مركز مدينتهم. غيّر البيزنطيون المدينة قليلاً، وضمن الباحة السماوية للتيمينوس الآرامي القديم، أو المعبد، بنى البيزنطيون كنيسة كرست للقديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى (ع)). كان البيزنطيون من أمهر بناة الكنائس. لقد بنوا حوالي خمس عشرة كنيسة داخل وخارج المدينة. فالكنيسة المصلبة التي بنيت بين بوابتي الباب الشرقي وباب توما كرمت بيت حنانيا، حيث شفي بولس من عماه وهو في طريقه إلى دمشق حيث آمن.

اختار الخليفة الأموي معاوية دمشق كعاصمة له عام ٦٦١م ولمدة ثمانية وتسعين عاماً، حتى ٧٥٠م، أصبحت دمشق عاصمة الإمبراطورية الإسلامية. ورويداً رويداً، غدت دمشق مدينة إسلامية من خلال هجرة العرب من الجنوب. ورغم أن المدينة حافظت على شخصيتها المسيحية، إذ كان الجهاز الإداري لمعاوية مسيحياً بشكل رئيسي خلال الستينيات، حتى تم تعريب الدواوين. في البداية انتشر

المسيحيون والمسلمون خلال المدينة وتعايشوا. وتناصف المسلمون والمسيحيون المعبد القديم/التيمينوس، فتعبد المسيحيون في القسم الغربي من المعبد القديم حيث كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وتعبد المسلمون في القسم الشرقي من المعبد القديم وفي الرواق الجنوبي الشرقي بانين محراب الصحابة. لقد بنى معاوية قصر الخضراء، الذي يعدّ عبارة عن قصر من عديد من القصور التي بناها الأمويون الأوائل في المساحات الرحبة القائمة حول التيمينوس القديم. كان السكن بحد ذاته جنوب التيمينوس، ويتصل به بواسطة باب خاص. كذلك إلى الجنوب كان يقوم قصر هشام بن عبد الملك. وكان يقوم شمال التيمينوس سكن الخليفة عمر بن عبد العزيز بن مروان، مكان المدرسة السميساطية الآن. ازدهرت دمشق تحت حكم الأمويين، وترافقت النهضة المعمارية مع الرخاء الاقتصادي: قصور، مساكن، أسواق، حمامات، مناهل، مبان حكومية، مشفى، ملأت العاصمة جمالاً وعظمة. واحد من قليل من الأعمال الهامة في الفترة الأموية، هي المقابر التي تحيط بأسوار المدينة كمقبرة الباب الصغير، حيث دفن بعض صحابة رسول الله (ص) ومنهم بلال (ر) مؤذن الرسول (ص) وكذلك الخلفاء الأمويون. ومن قليل مما تبقى من الفترة الأموية، مبنى واحد هو الجامع الأموي الكبير، يعبر عن عظمة الأمويين وعمارتهم. بني الجامع الأموي الكبير خلال عهد الوليد، وبدأ إنشاؤه عام ٧٠٥م واستمر حتى عام ٧١٥م. يحتوي الجامع الأموي على باحة سماوية كبيرة، يحيط بها من جوانبها الثلاثة أروقة ذات أعمدة ودعامات، وفي الجانب الجنوبي الرابع يوجد الحرم (حرم الصلاة). التصميم مماثل لذاك الجامع الذي بناه الرسول محمد (ص) في المدينة المنورة. تمتد صفوف الأعمدة من الشرق إلى الغرب قاسمة الحرم إلى مستطيلات طويلة ثلاثة، قبة تدعى قبة النسر ودعاماتها الحاملة تخترق وتقطع خطوط الأعمدة في منتصف الحرم. المنبر والمحراب الرئيسي يقعان في القسم الأوسط. تقوم مئذنتان في الزاويتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية للحرم. الأولى تدعى مئذنة عيسى أو الشرقية، والثانية تدعى مئذنة قايتباي أو الغربية.

ومئذنة ثالثة تدعى مئذنة العروس أو الشمالية خارج السور الشمالي للباحة السماوية. وتقوم ضمن الباحة السماوية ثلاث قباب، قبة الخزنة في الجهة الغربية، وقبة الساعات في الجهة الشرقية، وفي المنتصف قبة الماء. وضمن الحرم يقع ضريح رأس القديس يوحنا المعمدان، وهو عبارة عن منشأة صغيرة ذات قبة، وفي زاوية في الجهة الشرقية مشهد رأس الحسين (ر) حفيد الرسول محمد (ص).

عندما وصل العباسيون إلى السلطة عام ٧٥٠م أظهروا حقدهم نحو الأمويين من خلال سوء معاملتهم للعاصمة الأموية. تعدى العباسيون على دفاعات دمشق، وقاموا بأعمال سيئة داخل الجامع الأموي، ونبشوا الخلفاء الأمويين من قبورهم وهدموا كلياً المساكن والقصور الأموية العظيمة والمباني البلدية، وانخفضت مكانة دمشق إلى مدينة مقاطعة، ولن تعود المدينة إلى سابق عهدها حتى القرن الحادي عشر. وفي نهاية القرن الحادي عشر، غزا السلاجقة الأتراك دمشق. جدد السلاجقة النهضة المعمارية والبناء في المدينة، وكان أروع عمل لهم القلعة؛ حصن أنشئ في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة الرومانية القديمة. قصر صغير يقوم في هذا الموقع حيث الوالي أو حاكم دمشق. اختار اتسزين أوق موقع قلعته التي تتألف من جدران عالية وأبراج ضخمة للدفاع. كذلك بنى السلاجقة أيضاً مدارس عدة.

حكم نور الدين دمشق من ١١٥٤م إلى ١١٧٤م. رمم أسوار المدينة وبواباتها وأضاف أبراجاً مثل برجه، وابتكر مخازن مدينة (باشورة) عند كل بوابة لتموين حيها بالطعام خلال الحصار، وأمّن أماكن للإنشاء العام. من هذه المنشآت، ومن أعظم أعماله المارستان النوري، والمدرسة النورية، ودار الحديث النورية، وحمام نور الدين، ودار العدل التي لم يتم استكمال بنائها.

في عام ١١٧٦م، سيطر صلاح الدين على دمشق من الوصي على ابن نور الدين. استمر صلاح الدين ومن خلفه من الأيوبيين، يرعون المدينة لمئة عام. لقد ملأ الأيوبيون دمشق سحراً بنهضة ثقافية ومعمارية، واهتموا بالعلم والدين، ولذلك

بنوا عديداً من المدارس والجوامع داخل الأسوار وخارجها، خاصة في ضاحية الصالحية علي سفح جبل قاسيون، التي أضحت كمدينة تابعة تضم مسجداً كبيراً هو الجامع المظفري أو جامع الحنابلة ومارستاناً هو المارستان القيمري ومدرسة كبرى هي المدرسة العمرية. لقد كان للمرأة في العهدين النوري والأيوبي دوراً كبيراً في رعاية المدارس وإنشائها، مثل المدرسة الشامية البرانية، والتربة الخاتونية والمدرسة المرشدية والمدرسة الأتابكية وتربة العالمة أمة اللطيف والمدرسة المارداني والمدرسة الصاحبية، لدرجة دعي معها ذاك الحي الذي أنشئت فيه المباني بحي المدارس.

العادل، أخو صلاح الدين، جدد القلعة كلياً وزودها باثني عشر برجاً قوياً. ومن المدارس التي أسسها المدرسة العادلية الكبرى ضمن السور سنة ١٢١٥م وتممها ابنه المعظم سنة ١٢٢٢م. وتضم هذه المدرسة قبر العادل، وكانت مقراً للمجمع العلمي العربي. كذلك بنى العزيز ابن صلاح الدين المدرسة العزيزية عام ١١٩٥م لتضم في طرفها الغربي ضريح أبيه صلاح الدين الأيوبي. كذلك في نفس الفترة، أخذت دمشق تنمو خارج الأسوار من الناحية الشمالية والجهة الجنوبية والجهة الغربية، ففي الشمال بدءاً من باب الفراديس وباتجاه الغرب نشأت ضاحية العقيبة ونمت لدرجة أصبح لها جامعها الخاص وهو جامع التوبة، وحمامها وهو حمام العمري، وجنوباً بدءاً من الباب الصغير نشأت ضاحية الشاغور البراني وأصبح لها جامعها الخاص أيضاً وهو جامع جراح وحمامها وهو حمام السروجي، وغرباً بدءاً من باب الجابية وباتجاه الجنوب الغربي نشأت ضاحية قصر حجاج التي كان لها جامعها وهو جامع حسان منذ العهد النوري، وحمامها وهو حمام الزين. ومن الجدير بالذكر أن ضاحية هامة نشأت في العهد النوري في سفوح جبل قاسيون وتوسعت في العهد الأيوبي هي ضاحية الصالحية، أضحت شبه مستقلة عن دمشق وتبعد عنها (١,٥ كم). أتى بعد ذلك المماليك عام ١٢٥٠م، لكنهم وجدوا دمشق مدينة مكتظة بالفعل. إن أميراً أو حاكماً يرغب ببناء مسكنه أو قصره أو ببناء بعض المباني العامة، عليه أن يشتري إما منزلاً خاصاً، أو مبنى عاماً من أجل أهدافه، أو أن يبني خارج الأسوار. فإلى غرب القلعة، وخارج السور، بنى الملك الظاهر بيبرس القصر الأبلق، وللتو أحاطت به مساكن جديدة وسوق وجامع. كذلك بنى المماليك عدداً كبيراً من المدارس، ما يزال كثير منها قائماً حتى اليوم. فالمدرسة الظاهرية مثلاً التي أسسها الملك الظاهر بيبرس عام ١٢٧٩م ما تزال قائمة إلى اليوم، تضم ضريحه وتشغلها المكتبة الظاهرية وإلى الشمال منها حمامه. كذلك تابعت المدينة توسعها خارج السور، فنمت إلى الغرب من العقيبة ضاحية ساروجة وازدهرت ضاحية الميدان لوقوعها على طريق الحج، كذلك نمت إلى الغرب من قصر حجاج ضاحية باب السريجة والشويكة وأصبح لها جامعها الخاص هو جامع التوريزي وحمامها وهو حمام التوريزي.

تعرضت دمشق في أواخر العهد المملوكي إلى غزو تيمورلنك، حيث أضحت المدينة خراباً، وأحرق اللنك الجامع الأموي والمدينة، ولم تبدأ دمشق باسترداد أنفاسها إلا بعد أن دخل العثمانيون دمشق عام ١٥١٦م واستمروا في حكم المدينة حتى عام ١٩١٨م. إن كل قرن من القرون الأربعة من الحكم العثماني جلبت طرازاً معمارياً مختلفاً. فلقد بنى السلطان سليم الأول، أول سلطان عثماني حكم دمشق، مجمعاً من المباني حول ضريح الشيخ محي الدين بن عربي الذي يعجب به السلطان كثيراً في ضاحية الصالحية، يضم جامعاً بجوار الضريح، وتجاهه تكية ليطعم الفقراء مجاناً وفرناً وسبيلاً، وأصلح ناعورة قائمة لذلك الأمر. وفي عام ١٥٥٤م، بنى السلطان سليمان الثاني القانوني، على أنقاض قصر الملك الظاهر بيبرس، الأبلق، التكية السليمانية، والتي تضم جامعاً ومدرسة ومطبخاً. لجامعة التكية السليمانية مئذنتان طويلتان رشيقتان وقبة مفلطحة، معمارها كان الشهير سنان وتعتبر من أعماله الفذة. مبنيان آخران مشابهان للشيخ محي الدين والتكية السليمانية هما الدرويشية، بناها والي دمشق، درويش باشا عام ١٥٧٤م، والسنانية بناها والي دمشق سنان باشا عام ١٥٨٦م، وكلاهما قرب باب الجابية. وفي عام ١٥٦٢م

بنى مراد باشا تكية تعرف الآن بجامع النقشبندي في سويقة الميدان خارج السور. وفي عام ١٥٥٣م بنى شمسي أحمد باشا خاناً يدعى خان الجوخية في سوق الخياطين، وتكية في سوق الحميدية. سوق الحرير والسوق المسمى بالقيسارية المرادية، بنيا في نهاية القرن السادس عشر. الأول بناه درويش باشا، والثاني بناه مراد باشا. كذلك بنيت المدرسة الفتحية داخل السور وحمام فتحي في منتصف حي الميدان خارج السور. خلال القرن السابع عشر، حدث قليل من البناء. في القرن الثامن عشر، حركت عائلة العظم إنشاءات دمشق: مدرسة إسماعيل باشا في سوق الخياطين والحمام في منطقة الخراب، وخان سليمان باشا في الشارع المستقيم، وخان أسعد باشا في سوق البزورية، ومدرسة عبد الله باشا غربي سوق البزورية، ومدرسة سليمان باشا غربي سوق البزورية أيضاً، وقصر أسعد باشا العظم. هذا بعض من أعمال هذه الأسرة. ومن الجدير بالذكر النصف الغربي الأوسط من سوق الحميدية، وسكن الشيخ عبد الغني النابلسي في ضاحية الصالحية شرقي ضريح الشيخ محي الدين الذي تحول إلى جامع فيما بعد. كذلك نمت ضاحية الميدان نمواً كبيراً، لأن دمشق أصبحت مقراً لأمير الحج ومكاناً لتجمع حجاج الشمال والشرق. وأصبحت ساروجة مقراً للوجهاء وسكناً للموظفين والضباط الأتراك لدرجة دعي معها الحي باستنبول الصغيرة.

خلال القرن التاسع عشر، تم تحسين الطرق داخل وخارج دمشق، وشقت شوارع جديدة في المدينة، الأحياء السكنية، والطرق، والأسواق رممت وأصبحت أكثر جاذبية. وزوّد حي الميدان بدكاكين جديدة. مساكن رائعة بنيت في حي القنوات وساروجة، وأصبحت القلعة في هذه الفترة غير فعالة، لذلك تم ملء خندقها، واستخدمت جدرانها الخارجية كخلفية لصفوف الدكاكين. في عام ١٨٨٣م بنى الوالي ناشد باشا القسم الشرقي من سوق الحميدية، وحدوده من العصرونية إلى باب البريد. وفي نهاية القرن التاسع عشر، بنى مدحت باشا، والي دمشق، سوقاً تحمل اسمه في القسم الغربي من الشارع الذي يدعى الشارع الطويل. كذلك في نفس الوقت هربت مجموعة من المسلمين من جزيرة كريت، نتيجة الاضطهاد اليوناني، وهاجروا إلى دمشق. هذه المجموعة استقرت في منطقة سوف تدعى المهاجرين، أو حي المهاجرين، غربي ضاحية الصالحية. آخر وال من ولاة القرن التاسع عشر، ناظم باشا، بنى عديداً من الأعمال المعمارية : الثكنة الحميدية، السراي الجديدة، قصر المهاجرين، أول مستشفى حديث في دمشق، مستشفى الغرباء، ومد أنابيب لجلب ماء عين الفيجة إلى المدينة. كذلك رمم المؤرخ والشاعر التركي الشهير ضيا باشا، الذي تولى الولاية عام ١٨٧٦م، ضريح صلاح الدين، وبنى عليه القبة والبناء الجميل بعد أن كان بحالة يرثى لها. كما أجرى عليه بعض التعديلات ووضع الضريح الرخامي، الذي زاره في عهد الوالي ناظم باشا الإمبراطور غليوم الثاني وأهداه إكليلاً من البرونز، ثم زار مسطبة المهاجرين وتمتع بمنظر دمشق الجميل، وتنبأ للمنطقة بمستقبل باهر. العثمانيون مدّوا خط سكة حديد بين دمشق وبيروت، ومن دمشق إلى حوران، وفي عام ١٩٠٠م إلى الحجاز. محطة جميلة تدعى محطة الحجاز تزيد في جمال دمشق عام ١٩١٧م. لقد أنشأ العثمانيون خارج المدينة القديمة شوارع جديدة، كشارع جمال باشا، إلى جانب مد خطوط ترام كهربائي، أزيلت الآن. ومنذئذ أخذ اتجاه التوسع العمراني يتحرك غربي المدينة باتجاه ساحة المرجة التي استحدثت لتضم دار البلدية والصيدلية والعدلية والبريد والبرق ومسرح زهرة دمشق وبناء العابد.

تباطأ العمران إثر الحرب العالمية الأولى وحتى نهاية العهد العربي الفيصلي، إذ لم تكن هناك مشاريع عمرانية أو معمارية تذكر نظراً للفترة الانتقالية القصيرة التي ساد فيها العهد العربي الفيصلي حتى دخول القوات الفرنسية دمشق إثر معركة ميسلون الشهيرة في ٢٤ تموز ١٩٢٠ وبداية فترة الانتداب على سورية. لقد شغلت الحكومة العربية معظم المباني العثمانية التي أصبحت ملك يديها إثر مغادرة الأتراك البلاد. إلا أن ما يجدر ذكره هو بناء جامع للملك فيصل بجانب قصره الذي أصبح اليوم مقر السفارة الفرنسية بدمشق بعد أن كان مقراً

للمفوضية الفرنسية خلال الانتداب. وقامت الأوقاف بهدم المدرسة الإسعردية المجاورة للمدرسة المارداني، والتي تعرف اليوم بجامع الجسر الأبيض، ليقوم المسجد مكانها، إلا أن قصر المدة لم يسمح بذلك، إذ أنذر الفرنسيون فيصلاً بضرورة مغادرة البلاد، فقامت الأوقاف إثر ذلك بتحويل الموقع إلى بناء يضم محلات تجارية يعلوها سكن متعدد الطوابق، ما زال قائما حتى الآن. كذلك تم في العهد العربي عام ١٩١٩ نقل مدرسة الحقوق إلى دمشق، وتأسيس معهد الطب العربي وتأسيس المتحف الوطني في المدرسة العادلية الكبرى التي أضحت مقر المجمع العلمي العربي. لقد خضعت دمشق في عهد الانتداب إلى نظم عمرانية فرنسية تلت الأنظمة العمرانية العثمانية التي كانت سائدة في سورية إثر التنظيمات الخيرية وما تلاها، فشرع الفرنسيون بتعديل قوانين البناء والعمران العثمانية التي كانت سائدة قبل انتدابهم. لقد وظف الفرنسيون جامع تنكز مباشرة كمدرسة حربية أنشئت من قبل السلطة العسكرية للجيش الإفرنسي في الشرق وخصصت للجوقة السورية سنة ١٩٢١. وكانت هذه المدرسة التي كانت المدرسة الحربية التي أنشأها مدحت باشا باسم المدرسة العسكرية، تشغل جزءاً من جامع تنكز.

قبل محاولات البناء وتخطيط المدن والأحياء الحديثة وتدخل المهندسين والمستشارين الفرنسيين والتوسع، كان التخريب هو أول ما ساد رداً على الثورة السورية عام ١٩٢٥. فقصف سارايّ من قلعة المزة التي كانت تدعى حصن غورو مدينة دمشق القديمة نظراً لأن الثوار هاجموه في قصر العظم، فخرب حي العواميد الذي يضم معظم بيوت وجهاء دمشق الذين كان لهم دور كبير في الثورة السورية كبيت القوتلي والبكري والشهبندر، وكذلك سوق العصرونية الملاصق لجدار القلعة الشرقي. كذلك قصف الميدان الوسطاني، حيث تهدم مثلاً الجامع الرفاعي وبيت الصباغ. وبالتالي تطلب الأمر إعادة تخطيط المنطقة المحروقة وفق نظام البناء الجديد المعدل عن النظام العثماني للمناطق المحروقة، فتم تخطيط المنطقة شطرنجياً نتيجة حل يتبنى الفكر الروماني الشطرنجي. وكانت الفكرة أساساً أن تكون المنطقة سكنية، إلا أنها حولت لمنطقة تجارية من أجل زيادة التعويضات للمتضررين. كانت النتيجة تهدم حمام القاضي وجامع التكية الأحمدية والمدرسة العذراوية وحمام العذراوية وجامع السياس وجزء من سور دمشق وكثير من المباني الضخمة كبيت مراد القوتلي ونسيب البكري وبيت البسطامي وبيت مقر القنصلية الألمانية وغيرها. ونتيجة للتنظيم الشطرنجي تم شق طريق مستقيم تجاه محور مدخل جامع درويش باشا حتى مدخل قصر العظم الذي أصبح مقراً مؤقتاً للقيادة الفرنسية، وكان يضم في ذات الوقت معهد الفنون والآثار الإسلامية الإفرنسي الذي مهد لإحداث المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، والذي اختير مقره فيما بعد في مبنى حديث مطل على شارع "أبو رمانة"، غربي ساحة النجمة. في الحقيقة، لو نفذ هذا المحور بأكمله وفق ما سمي بعدئذ بشارع معاوية نتيجة تسمية تنظيم الحريقة بتنظيم سيدي عامود، لقضى المحور على جزء من المدرسة النورية الكبرى التي تهدم القسم الشمالي منها، وعلى مدرسة عبد الله باشا العظم وعلى منزل حافظ بك العظم المجاور الذي شغلته الكلية العلمية الوطنية للذكور، والمدرسة الفارسية وجزء من خان الصدراني وقسم من الجزء الشمالي للبزورية والمدرسة الجوزية. لكن الأمر توقف عندما نراه اليوم كوضع راهن وبناء مجموعة من المباني البيتونية الغريبة عن النسيج العمراني لدمشق القديمة. أما المهندسان الأساسيان اللذان خططا المنطقة فهما فيليب أسود وفيتا بنيتو. ومن الجدير بالذكر أن جامع سنان باشا لم ينج من القصف، فقد أصابت قذيفة قبته واخترقتها من جهة الغرب، إلا أنها لم تنفجر لحسن الحظ، وكذلك تصدعت مئذنته قليلاً.

بعد ذلك، بدأ الفرنسيون بتشجيع التوسع العمراني في مناطق خارج النسيج التاريخي. ولم تنج غوطة دمشق من ذلك التوسع، فقام الفرنسيون بتخطيط وتنفيذ سوق الهال في بستان الباشا، حيث كان وقف الوزير مصطفى باشا، فهدم الخان وما تبقى من المسجد العثماني وبني السوق على النمط الأوروبي المخالف لنسيج دمشق العمراني كلياً بين سنتي ١٩٢٨–١٩٣٠م. ومن

أجل التنسيق بين مقر القيادة العسكرية في بوابة الصالحية والمشفى الفرنسي، تم شق شارع بغداد عام ١٩٢٨ وسبقه شارع الباكستان وشارع العابد، وربطت بينهم ساحة السبع بحرات، وبني بناء اللاييك عام ١٩٢٥ في الجهة الشمالية من شارع بغداد تجاه الأزبكية. وكانت الغاية من الشارع استراتيجية لمنع انتقال الثوار عبر بساتين الغوطة إلى حي الأكراد والصالحية من المدينة القديمة وبالعكس، وتأمين الصلة مع المشفى الفرنسي ومشفى فيربوزييه (المشفى العسكري العثماني) لنقل الجرحى عبر شارع ٢٩ أيار من خلال ساحة بوابة الصالحية. كذلك على امتداد شارع العابد، نظم شارع البرلمان حوالي عام ١٩٢٦ حيث بنيت كنيسة اللاتين عام ١٩٢٦. إن شق هذا الشارع أدى إلى تنظيم ساحة دعيت مستديرة البرلمان حتى عام ١٩٣٧ ثم دعيت ساحة النجمة وفق تجربة فرنسية للاقتداء بساحة النجمة في باريس، والذي يؤدي امتداده إلى طريق الجبخانة المجاورة للتربة العسكرية الإفرنسية الأولى، مما شجع على عمران زقاق الصخر وشق شارع أبو رمانة، حيث توضعت على أطراف الساحة الأبنية الجميلة منها بناء أنيس شباط عام ١٩٣٧ وبناء العرقتنجي عام ١٩٣٢ وبناء صقر قريش عام ١٩٣٣ والإذاعة، وكذلك الامتدادات شمالاً ومنها بناء دار العظم عام ١٩٣٥، والامتدادات جنوباً حيث وجدت المحكمة الفرنسية. وإلى شرقي كنيسة اللاتين بني جامع ومدرسة الإسعاف الخيري عام ١٩٣٦ يفصل بينهما الطريق، وإلى الشمال الشرقي منه بني بناء كسم وقباني ذي الطوابق الستة، الذي ضم أول مرآب للسيارات تحت الأرض وكذلك أول مصعد كهربائي في دمشق. وكان المعهد الصحي قد نشأ شمال كنيسة اللاتين عام ١٩٣١ يفصل بينهما شارع البرلمان. وكذلك الحارة الموازية لشارع البرازيل من ناحية معمل البوظ شمالاً في بستان الحبوبي، وكذلك بناء الفرنسيسكان على أرض ممتازة غربي كنيسة اللاتين ترتبط مع منطقة الشعلان التي نمت في ذلك العهد نمواً وفق سكن حزمي لتسكن فيه الجالية الفرنسية، إضافة لسكنها وتعايشها في حي محور الشهداء وعرنوس، لقرب ذلك من المفوضية ومن مقر القيادة الفرنسية تجاه البرلمان التي تدار منها أمور الدولة. لذلك نلاحظ إلى الشمال من جامع الشهداء وإلى الجنوب الشرقي من تحت قنطرة زقاق السبكي مكاتب إد د ارة ومحاسبة الجيش الإفرنسي (الانتندانس) وتجاهها مبنى الجمعية التعاونية للقوات الفرنسية (الكوبيراتيف). لقد أنشئ النادي السوري الفرنسي في أحد بيوت حي الشهداء عام ١٩٢٧ وأشرف على تأثيثه وفق النظام العربي المهندس المعماري الفرنسي ميشيل ايكوشار، وألغي هذا النادي عام ١٩٢٩، كما أنشئت مدرسة دوحة الأدب تجاه جامع الشهداء وإلى الشمال قليلاً منه لتكون رداً وطنياً على انتشار المدارس التبشيرية الفرنسية. لقد كان للفرنسيين دور هام في هذه المنطقة التي عرفت بحي الأوروبيين، لذا رأينا أن الأمير نوري الشعلان بنى جامعاً في هذه المنطقة عام ١٩٢٦/١٩٢٧ والتي سكنها في بيت عثماني قديم ذي طاحون شمالي الجامع. وفي حزيران عام ١٩٢٨ احترقت سينما النصر، وبالتالي تهدم ما بين شارع السنجقدار وشارع التبن وأعيد تنظيم المنطقة بشكل شطرنجي أيضاً وبمبان تشابه مباني منطقة الحريقة.

أما في القصاع خارج سور باب توما، كان للفرنسيين دور هام في بناء وتنظيم الساحة، حيث هدم جامع الحجاز ولم يبق منه سوى قاعدة مئذنته، وهدم جزء من السور لتحل محله ساحة وفق تنظيم عمراني شاذ عن نسيج المدينة القديمة. كذلك تم تعريض حارة الزيتون، وشق طريق عريض جوار المريمية من الجهة الغربية، فهدم جامع الحجيج وبقيت مئذنته وتوقفت التوسعة عند المنشرة، فبقي الطريق بجوارها ضيقاً ليعود فيتسع خلف المنشرة. كذلك نظمت ساحة برج الروس وبني هناك بناء صعبية جنوب الساحة عام ١٩٣٢ كمبنى متعدد الطوابق في هذه المنطقة وفق الأسلوب الفرنسي وتوسع القصاع شماليها. أما المنطقة غربي الساحة فنظم فيها طريق باتجاه باب توما حتى الجسر وفق نظام عمراني جديد دعي باسم شارع بورتو الليغري وفقاً لأسماء مدن من المهجر درج السوريون على إطلاقها تكريماً للمغتربين العرب في المهجر الذين ساهموا كثيراً في عمران البلاد. وهنا لابد من ذكر تنظيم

منطقة الشريبيشات أيضاً وفق النمط الشطرنجي شرقي شارع خالد بن الوليد، جنوبي شارع جمال باشا الذي أتى أيضاً وفق النمط الأوروبي. أما حي المهاجرين الذي وضع مخططه ورسمه بعناية تامة المهندس محمد بشير أفندي الذي كان مساعداً رئيسياً لرئيس مهندسي البلدية بول أوبري، فقد امتد غرباً من طلعة عاطف إلى المرابط، حيث بني جامع المرابط عام ١٩٣٠، ومنه إلى آخر الخط حيث بيت الشيخ عبد المحسن الأسطواني وشرقيه بيت حسني الهبل والسبيل الذي بنته زكية بنت محمد الهبل سنة ١٩٢٧ على الجدار الغربي لوجيبته الأمامية، تفصل بينهما نزلة الحواكير، وإلى الشمال بغرب بيت أبو عرب زلقط بائع الصبارة الشهير الذي هو أحد مهاجري البوسنة... لقد كان هناك قصر مصطفى باشا العابد إلى الغرب بمسافة جيدة عن قصر ناظم باشا كما نعلم.لقد استمر البناء في الجهة الشمالية من شارع ناظم باشا أيضاً، ثم أخذت المساكن بتسلق جبل قاسيون صعوداً حيث بنيت في طلعة المصطبة كنيسة الروم الكاثوليك عام ١٩٣٠.

ومما يجدر ذكره، أن أهم ما تم من أمر في سنة ١٩٣٦ هو وضع أول مصور تنظيمي لدمشق من قبل المهندسين دانجيه يساعدهما ميشيل ايكوشار لتحديد استعياب وتوسع دمشق وتنظيمها وفق أفكار ما بين الحربين العالميتين، حيث للسيارة المكانة الأولى وللنسيج العمراني المكانة الثانية، مما أثر على نسيج المدينة. إلا أن معظم ما خطط له لم ينفذ لحسن الحظ، بانتظار المصور التنظيمي العام لمدينة دمشق الموافق عليه الذي قام به ايكوشار وبانشويا وأنجزاه عام ١٩٦٨. الأمر المهم في عام ١٩٢٨-١٩٢٩ هو بناء البرلمان السوري بقسمه الأول الذي صممه ديراندا، ثم بناء الجامعة السورية ١٩٢٩-١٩٣١ ثم بناء بنك سورية ولبنان عام ١٩٣٢، ثم بناء دائرة السجل العقاري عام ١٩٣٢، ثم بناء أوقاف دمشق عام ١٩٣١، ثم المعهد الصحي عام ١٩٣١، ثم بناء دائرة وزارة الأشغال العامة عام ١٩٤٤-١٩٤٦، وفندق الأوريان بالاس عام ١٩٣٢. أما مطار المزة فالأرجح أنه بني عام ١٩٢٣، وكذلك بني حصن خانق الربوة غربي قبة سيار، وقلعة غورو في جبل المزة.

ومما يؤسف له أن الانتداب الفرنسي، وكما بدأ بالقصف والتخريب عام ١٩٢٥، انتهى عام ١٩٤٥ بالتخريب أيضاً، فقصف البرلمان السوري في ٢٩ أيار من مبنى القيادة الفرنسي المواجه له بنيران الدبابات والمصفحات، وكذلك قصف شارع رامي وجامع تنكز ومبنى الأوقاف والأوريان بالاس، وسوق الخيل، والمولوية، والعصرونية ... وبالتالي أخذ الناس يفرون باتجاه حي المهاجرين الذي كان الفرنسيون يمهدون لقصفه حيث لجأ إليه سكان دمشق هرباً من القصف، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك حيث أجبر الإنكليز الفرنسيين على إيقاف القصف وبالتالي على الانسحاب من سورية، فنالت دمشق استقلالها عام ١٩٤٦، فكان ذلك خاتمة الانتداب. ودعي شارع أبو رمانة نتيجة لذلك بشارع انكلترا نكاية بالفرنسيين، ثم استبدل بشارع الجلاء.

أما في فترة الاستقلال فتابعت دمشق عمرانها وعمارتها وفق التشريعات العمرانية التي ورثتها عن نظام الانتداب. وكان توسع المدينة وتنظيم المناطق السكنية يتم رويداً رويداً وفق الحاجة، فأخذ التوسع يتم على حساب بساتين غوطة دمشق المحيطة بها، فتم تنظيم بستان الحبوبي، ثم بستان السبكي، ثم تنظيم الروضة، ثم تنظيم بستان المزرعة، ثم تنظيم القصور، ثم تنظيم المالكي... ثم ظهرت الحاجة إلى تشييد مبان للمؤسسات الحكومية، ونقل بعض القديم منها إلى أماكن جديدة، مما أدى إلى هدم القديم منها. فمثلاً بني بناء جديد لبلدية دمشق في بوابة الصالحية مما أدى إلى هدم مبنى البلدية القديم في ساحة الشهداء. وكذلك أدى بناء القصر العدلي تجاه مدخل سوق الحميدية إلى هدم مبنى المشيرية وحمام ملكة ومبنى العدلية القديم في ساحة المرجة. كما أدى بناء البريد قرب محطة الحجاز بجانب فندق الشرق إلى هدم مبنى البريد القديم المجاور لمبنى العدلية أيضاً... كذلك ظهر نمط جديد من التنظيم العمراني لوحدات سكنية متعددة الطوابق وفق أسلوب أوروبي غريب عن نسيج دمشق العمراني خال من الباحات السماوية، مما أجبر المنظم العمراني على تأمين

حدائق عامة كي يستطيع الساكن الترويح عن نفسه، فقامت البلدية بتخصيص بعض الفراغات العامة كحدائق عامة، من أهمها: حديقة المدفع، وحديقة السبكي، وحديقة أبي العلاء، وحديقة المنشية وحديقة التجارة. أما حديقة الجلاء المواجهة للتكية السليمانية التي نظمت في فترة الانتداب من قبل المعمار الفرنسي ميشيل ايكوشار كي تتكامل في الموقع مع المتحف والتكية، فقد اختير القسم الجنوبي منها ليضم شعلة الجلاء. أما حديقة الأمة غربيها فقد تم الحفاظ عليها.

ومن المباني الهامة التي تم إنشاؤها في الخمسينات مبنى الهاتف الآلي تجاه تنكز، والمطبعة الرسمية في شارع خالد بن الوليد في بستان الزاغة، وإعادة بناء جامع تنكز وفق مفهوم معاصر بعد تعرضه للقصف الفرنسي عام ١٩٤٥ على شكل جامع معلق يضم دكاكين في الأسفل، يعلوها الجامع، وكذلك بناء دار المعلمات شمال المزرعة وبناء دار المعلمين غربي شارع الجلاء. ولضرورة الربط مع التوسع في الجهة الغربية من المدينة وتمهيداً لتنظيم غربي المالكي، نظمت ساحة الأمويين لترتبط مع الساحة الشمالية التي سميت بساحة المالكي عبر شارع المالكي، كذلك نظمت منطقة القصاع ومنطقة التجارة التي سميت بذلك نتيجة لبناء ثانوية التجارة فيها، ونظمت كذلك ساحة التحرير ثم ساحة العباسيين نتيجة شق شارع حلب. كذلك، من الأمور الهامة، إشغال ميدان سباق الخيل المجاور شمالاً للجامعة والواقع بينها وبين بردى بمعرض دمشق الدولي ليضم أجنحة الدول المشاركة. وبني حينذاك غربي الملعب البلدي، مسرح معرض دمشق الدولي الذي افتتح والمعرض عام ١٩٥٤.

أخذ السكن بالتوسع في ضاحية المزة القديمة، حيث بنيت المساكن الشعبية كتجربة جديدة عام ١٩٥٦ قبل مطار المزة. وتم تخطيط منطقة جبل المزة لتضم مساكن شعبية أيضاً ولكن ككتل متعددة الطوابق. وهنا لابد من ذكر بناء مشفى المواساة الحديث في موقع بين المزة القديمة وغربي دمشق في كيوان، في أرض تعرف بمصطبة الهبل، حيث وضع حجر أساسه في ٢ تموز ١٩٤٦، وكذلك بناء مشفى المجتهد في نهاية شارع خالد بن الوليد من الجهة الجنوبية الشرقية، وكذلك بناء مشفى ابن النفيس شرقي نهاية حي الأكراد، وتشييد بناء الجمارك في منطقة البرامكة عام ١٩٤٨. أما في الستينات فتم تنظيم ساحة عرنوس وتنظيم ساحة الميسات وتنظيم ركن الدين وجنوبه، وتنظيم الفيلات الغربية في المزة، وتنظيم المالكي وإحداث حديقة الجاحظ، وكذلك بناء مصرف سورية المركزي شمال ساحة السبع بحرات شرقي جامع بعيرة، وإلغاء الترام وسيلة النقل الكهربائية صديقة البيئة بدأ من عام ١٩٦٤ وعلى مراحل، وشق أوتوستراد المزة عام ١٩٦٦ لتقوم بعد ذلك على جانبيه المباني متعددة الطوابق، والأبراج السكنية حتى الفيلات الغربية، كذلك قامت المباني البرجية في حي الزاهرة شرقي حي الميدان القديم. وفي السبعينات بني حي برزة مسبق الصنع وتم تنظيم مشروع دمر السكني كضاحية تابعة لمدينة دمشق، ونظمت منطقة الفيلات الشرقية كضاحية سكنية في المزة أيضاً جنوبي الأوتوستراد، ثم تنظيم غربي المالكي. ولكن نتيجة لتوسع دمشق السريع، بدأت تظهر مناطق المخالفات على أطراف المدينة.

لقد شهدت دمشق نهضة عمرانية واسعة النطاق في الثمانينات، فبني مقسم الهاتف الآلي في المهاجرين، وبني قصر تشرين للضيافة، والمكتبة الوطنية، والقصر الجمهوري الجديد، ونظمت حديقة تشرين، والملاعب الرياضية المكشوفة والمغطاة كصالة الفيحاء مثلاً شرقي الميسات، إثر هدم الملعب البلدي لكرة القدم، والملعب البلدي لكرة السلة غربي المتحف الوطني من أجل بناء جسر يربط شارع الجلاء بشارع الجامعة فمنطقة البرامكة، حيث هدمت محطتها ليقوم مكانها بنا برجي تشغل قسمه الشرقي الوكالة العربية السورية للأنباء. كذلك بنيت أبنية جديدة للجامعة التي أخذت بالتوسع، فإثر بناء النادي والمكتبة المركزية، بنيت كلية العلوم، ثم دار الفيزياء، ثم كلية الهندسة وورشاتها، ومطبعة الجامعة، والمعهد المتوسط الهندسي تجاه الجمارك، ثم كلية الهندسة المعمارية، ثم كلية الفنون الجميلة، ثم كلية الاقتصاد والتجارة، ثم كلية التربية. أما كلية الآداب فبنيت في موقع آخر يضم مجمعاً

جامعياً جنوب المدينة الجامعية التي شيدت في الخمسينات وجنوب أوتوستراد المزة ليحتوي على كلية الطب وكلية الصيدلة ليليها شرقاً مشفى الأسد الجامعي. أما كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية فبنيت جنوب دوار المطار الجديد الذي من أجل شق طريقه وربطه بالمدينة هدم جزء من حي الميدان وهو الميدان الوسطاني. كذلك حُدّثت ساحة المسكية عام ١٩٨٤ غربي الجامع الأموي بعد هدم محلاتها وما يحيط بها، وشق طريق المراسم، وتوسعت كذلك مباني المدينة الجامعية في التسعينات. كما انتهى بناء المسرح القومي في جنوب شرق ساحة الأمويين سنة ٢٠٠٠ وكذلك بناء قصر العدل الجديد في المزة سنة ٢٠٠١م.

إلا أن أهم ما حدث في فترة الاستقلال وفي الستينات، كان وضع المصور العام التنظيمي لمدينة دمشق الموافق عليه سنة ١٩٦٨ الذي نظم الربط الطرقي والتوسع السكني وحافظ على الحزام الأخضر المطوق لمدينة دمشق من الجهات الشرقية والجنوبية والغربية. إلا أن ما تم وضعه لم يؤخذ به تماماً للأسف وكان التنفيذ بطيئاً. وكان من مآسي هذا المصور إثر شق شارع الثورة، القضاء على حي من أجمل أحياء دمشق هو ساروجة، تلاه هدم سوق الخجا وهدم البحصة، وهدم حي عرنوس إلخ. أما عدم تنفيذ ما جاء في المصور بخصوص دمشق القديمة ضمن السور فقد ساعد في الحفاظ على شخصية المدينة، حيث كان قد قدم بعضهم مثل ويتمر وموروزوف حلولاً لا تتناسب والمدينة القديمة مما كان سيؤدي إلى هدم نسيجها.

وختاماً، ظهرت مؤخراً سلسلة من الفنادق الجديدة مثل فندق الشام والمريديان والشيراتون، حيث تسبب المريديان في هدم نادي الغوطة، والشيراتون في هدم تجمع كيوان السكني وفندق الفصول الأربعة الذي قضى على حي زقاق الصخر وأتى على القسم الشرقي من حديقة الأمة. لقد توسعت دمشق كثيراً جداً، وحدثت أمور عمرانية ومعمارية كثيرة أيضاً منذ فترة الاستقلال حتى الآن يصعب اختصارها، إلا أننا وبسبب عدد الصفحات المحدد للموضوع، اكتفينا بالتكلم عن أهمها.

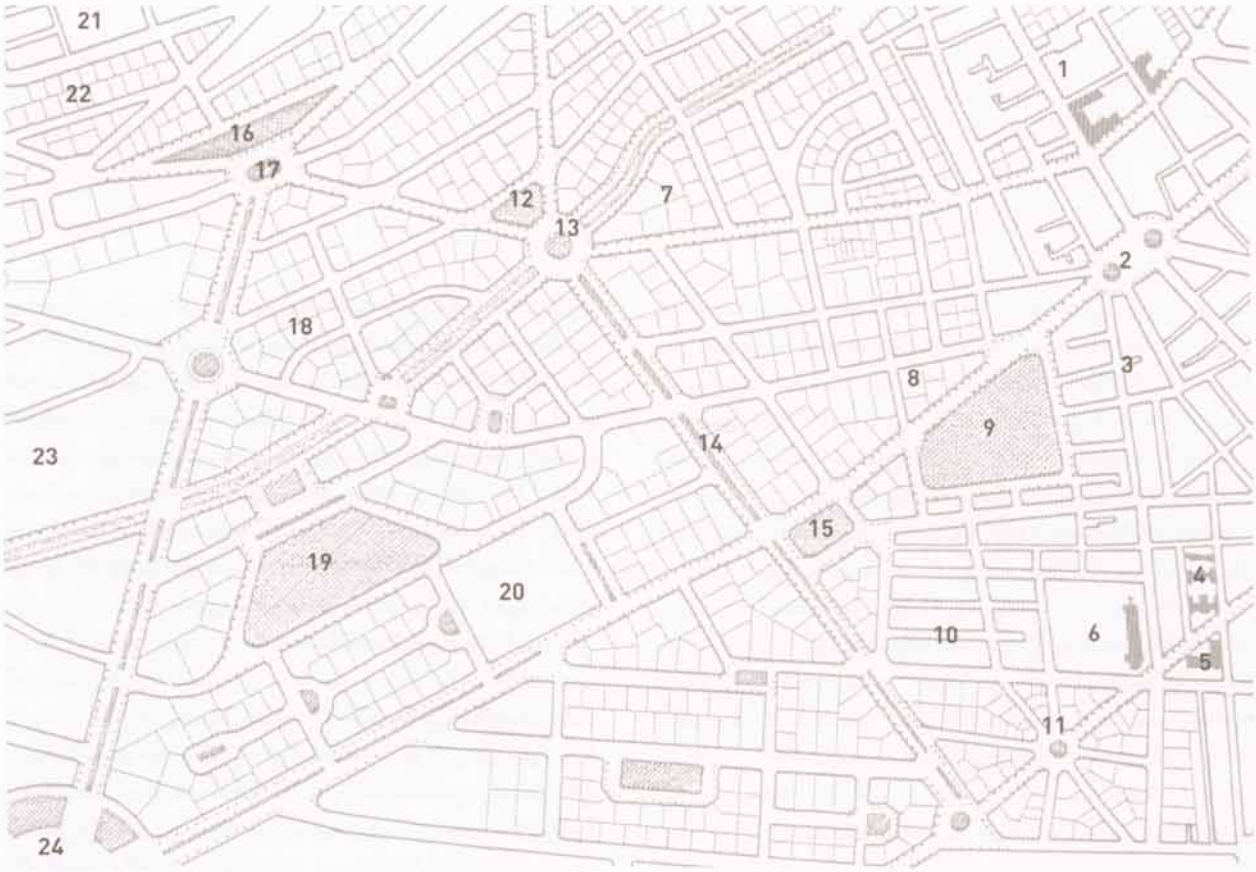

Damaskus. Stadterweiterung zwischen den 30er- und 70er-Jahren.
توسع دمشق أثناء الثلاثينات والسبعينات.

1 Al-Tilyani
2 Sahet 'Arnoos
3 Al-Shaa 'lan
4 Ma 'had Al-Sihha
5 Deir Allatin
6 Al-Fransiskan
7 Al-Rawda
8 Al-Sibki
9 Hadiqet Al-Sibki
10 Al-Hboobi
11 Sahet Al-Namje
12 Hadiqet Al-Rawda
13 Sahet Al-Rawda
14 Abou Rummane
15 Jneinet Al Madfa'
16 Hadiqet Al-Malki
17 Sahet Al-Malki
18 Al-Malki
19 Hadiqet Al-Jahez
20 Jneinet Al Amerkan
21 Al-Mohajirin
22 Qurtuba
23 Gharb Al-Malki
24 Sahet Al-'Umawiyyin

١ – الطلياني.
٢ – ساحة عرنوس.
٣ – الشعلان.
٤ – معهد الصحة.
٥ – دير اللاتين.
٦ – الفرانسيسكان.
٧ – الروضة.
٨ – السبكي.
٩ – حديقة السبكي.
١٠ – الحبوبي.
١١ – ساحة النجمة.
١٢ – حديقة الروضة.
١٣ – ساحة الروضة.
١٤ – أبو رمانة.
١٥ – جنينة المدفع.
١٦ – حديقة المالكي.
١٧ – ساحة المالكي.
١٨ – المالكي.
١٩ – حديقة الجاحظ.
٢٠ – جنينة الأمريكان.
٢١ – المهاجرين.
٢٢ – قرطبة.
٢٣ – غرب المالكي.
٢٤ – ساحة الأمويين.

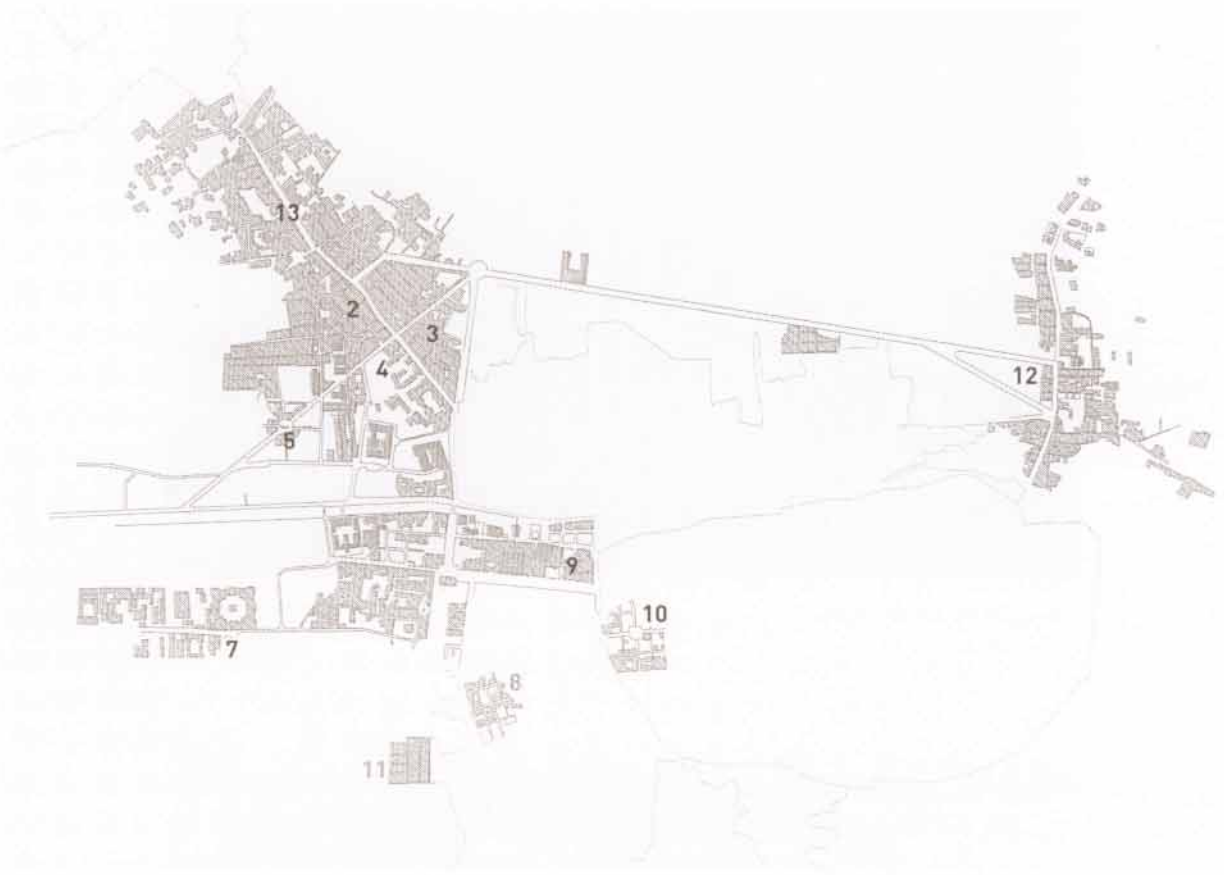

Damaskus. Unter französischem Mandat erweiterte Stadtviertel.
أحياء التوسع خلال الانتداب الفرنسي.

1 Arnoos
2 Al-Shuhada
3 Al-'Abed
4 Al-Barlaman
5 Sahet Al-Namje
6 Al-Habooni
7 Al-Baramke
8 Al-Shreibeeshat
9 Al-Sanjakdar-Rami
10 Al-Hariqa
11 Bustan Al-Zagha
12 Al-Kassa'
13 Al-Tilyani
14 Al-Jisir Al-'Abyad

١- عرنوس.
٢- الشهداء.
٣- العابد.
٤- البرلمان.
٥- ساحة النجمة.
٦- الحلبوني.
٧- البرامكة.
٨- الشريبيشات.
٩- السنجقدار - رامي.
١٠- الحريقة.
١١- بستان الزاغة.
١٢- القصاع.
١٣- الطلياني.
١٤- الجسر الأبيض.

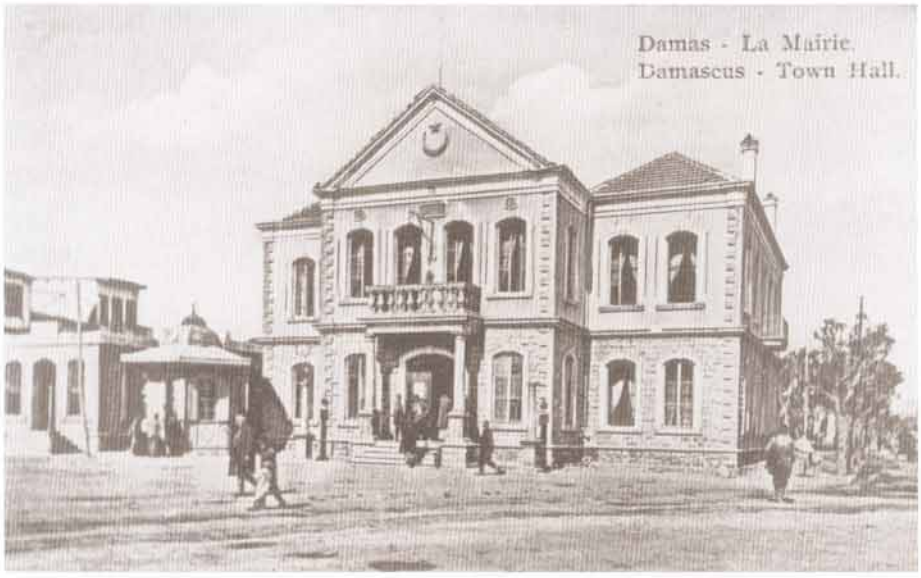

Damaskus. Rathaus Al-Baladiyya.
دمشق. البلدية.

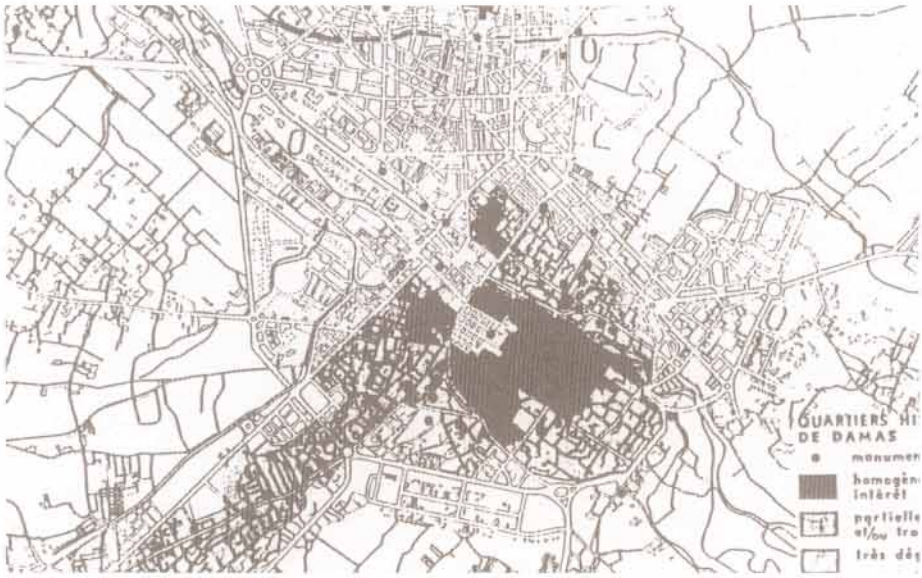

Historische Viertel von Damaskus, 1976.
الأحياء التاريخية في دمشق (١٩٧٦).

Damaskus. Orient Palace Hotel [1932].
دمشق. فندق الشرق (١٩٣٢).

Damakus. Bahnhof Al-Hijaz (1919).
دمشق. محطة الحجاز (١٩١٩).

Damaskus. Sahet Al-Marje.
دمشق. ساحة المرجة.

Damaskus. Victoria Hotel (ca. 1900).
دمشق. فندق فيكتوريا (حوالي ١٩٠٠).

Damaskus. Omaiyadenmoschee
دمشق. الجامع الأموي.

Damaskus. Sahet Al-Marje (rechts: Al-Barid und Al-ʿAdliyya; links: Al-Baladiyya).
دمشق. ساحة المرجة. (إلى اليمين: البريد، ثم: العدلية، إلى اليسار: البلدية).

Damaskus. Blick auf die Stadt nach dem Brand von Sidi 'Amood, 1925.
دمشق. منظر عام بعد حريق سيدي عامود (١٩٢٥).

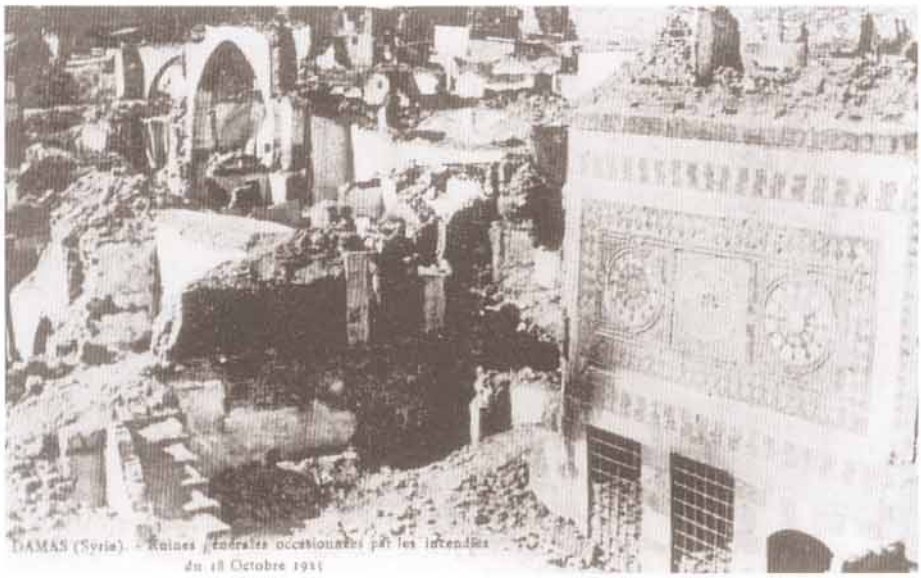

Damaskus. Ruinen nach dem Bombardement, 1925.
دمشق. الخرائب بعد القصف (١٩٢٥).